مريد البرغوثي

اسْتيقِظْ كَيْ تحلُمْ



شِعر

استيْقِظْ كي تَحْلُم

مريد البرغوثي

استيْقِظْ كي تَحْلُم

مكتبة | 298

شِعر



Wake up to Dream
By: Mourid Barghouti

First Published in June 2018

BEIRUT – LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb
www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-693-5

الطبعة الأولى: حزيران (يونيو) ٢٠١٨

تصميم الغلاف: ديمة علاء الدين البرغوثي

صورة الشاعر على الغلاف بعدسة دارة علاء الدين البرغوثي

الإخراج الفني: علي كمال الدين

الإهداء

إلى رضوى عاشور

خُلودٌ صَغير

مُفرَداً، شاهقاً، شُرْفَتي غيمةٌ دلَّلَتْها السماءُ
أُطِلُّ على شاطئٍ، جَنّةٍ،
قال أخضرُها كلَّ أقوالِهِ هامِساً، هادِراً
فستُقِيَّ الذوائبِ، يوشكُ يلْمَعُ،
أخضرُ يرضَعُ، يحبو،
يكاد يشبُّ إلى المشمشيِّ المُضيءِ
ويدخل في الصَّدَئيِّ المُوَشّى كما
قِشْرِ رمّانةٍ أَوْغَلَتْ في النّضوجِ
وأخضرُ فيه الدُّخانيُّ
يهربُ من زُرْقةٍ خالَطَتْهُ

وفيه الجُمان الذي يتدرج نحو النحاسيِّ
والعِنَبِيّ الشفيفِ، وما لستُ أعرفُ،
غاباتُها تستريحُ بمنْحدراتٍ تُلامسُ
صمتَ البحيرةِ من كل جَنْبٍ
ورائحةُ الزّهر تعلو مِن السفحِ نحوي
عُلُوَّ الدُّفوفْ.

وتبدو الجِبالُ جُدوداً
كأجدادِنا يألَفونَ أماكِنَهمْ عادةً
فالجِبالُ زمانٌ، إذا ما تَمَعَّنْتَ في أمرِها
إنها الوقت متَّخِذاً جَسَداً
ومياهُ البُحيرةِ، منقوشةً بالمراكبِ، تبدو
كثَوْبِ الحفيدةِ تُصغي لِسِحْرِ حكاياتِهِمْ
مَسَّها نَعَسٌ
والنسيمُ يطوفُ القُرى حول قوسِ المياهِ
خَجولاً

يكاد يقدِّم أعذارَهُ للحَفيفْ،

وأنا، بجناحَيْنِ قد حَدَثا فجأةً،
شاهقاً، ومُطِلّاً على كل هذا المَدى
ربما صِرتُ طيراً ولي نَظْرَةُ الطيرِ،
فالآنَ أعرفُ بالضبطِ ما نَظْرَةُ الطير،
أعرفها
قلت هذا صباحٌ يَحِنُّ على مَن يُشاهِدُهُ
بل صباحُ مَشاهِدَ حَنَّتْ على بعضِها
سوف أحتاجُ عاماً
لأعرفَ أسماءَ أشجارِها
والنباتاتِ والزهرِ والطيرِ
أو أَعرفَ اسمي أنا ها هُنا
وهنا يَحسُنُ الشِّعرُ
فاكتبْ كما تشتهي يا غريبُ،
هنا تشتهيكَ الحُروفْ.

تأمّلْتُ جِسمي فأربكَني:
خَلْفَ أزرارِ هذا القميصِ الخفيفْ،
حاضِرٌ،
مثلَ رُكْبَتِكَ ارتطَمَتْ بالرُّخامِ.
وماضٍ مُخيفْ،
كذِئبٍ يفكِّر في طفلةٍ
ويِصِرُّ على أن أسميه مُستقبَلاً.
ومنازلُ أهلي التي غيَّرتْ أهْلَها
والخسائرُ مصفوفةٌ كالقواميسِ فوق الرّفوفْ

وأُغمِضُ جسمي وعيناي مفتوحتانِ
كَشُبّاكِ أُمّي
وشُبّاكُها لم يُطِلَّ على لَهْوِ أحفادِها
في حديقتِها
بل على لَهْوِ «رَبّ الجنودِ» بأيامنا
وانقلابِ الصفاتِ إلى عَكْسِها

وفسادِ الضَّحيةِ مِن رأْسِها
وانهيارِ المُنى والسّقوفْ

خَلْفَ أزرارِ هذا القَميصِ الخَفيفْ،
أواصلُ أشغالَ مَن ظلَّ حَيّاً:
أدفِّئُ «رضوى» من البَرْدِ،
يسهرُ عندي «مَجيدٌ»
وتقطفُ «أمُّ منيفٍ» زُهورَ حديقتِها
في انتظارِ «مُنيفْ».
وها نحن نمشي معاً في صَباحِ الجِبالِ
نقولُ ونَسمَعُ نتعَبُ نُبْطِئُ نرتاحُ نسرِعُ
نغضب نغفر
ننسى نتوه قليلاً ونسألُ
نذْكُرُ بيتاً من الشعر للمُتَنَبّي
ونضحكُ مِن نكتةٍ خالطت دمعنا
هل أغيِّرُ للموتِ رأياً وأُقْنِعُهُ أنه فاشلٌ؟

أيقتنعُ الموتُ أنّي أسيرُ بأقدامهمْ؟
فخُطايَ خُطاهُمْ
وعينايَ أعينُهُمْ
والقصيدةُ إصغاؤهم
هل سأقنعهُ أنهم يَحدُثون لِيَ الآنَ
مِثْلَ النّجاةِ ومِثْلَ العِناقْ؟
يَحدُثونَ لِيَ الآنَ حتى نُطيقَ معاً
عِبْءَ هذا الجَمالِ الذي لا يُطاقْ
وأنّ خُلوداً صغيراً يباغتُنا الآنَ فِعْلاً؟
تميمٌ سيَلْتقِطُ الصورةَ الآنَ،
قُلْتُ انتظِرْ لحظةً:

سوف أُصلِح ياقَةَ رَضْوى،
وأُذْنِي مُنيفاً وأمّي إليَّ وأطولَنا، والدي ومَجيداً،
إلى المُنتصَفْ

أيقتَنِعُ الموتُ أنّا بُعِثنا هنا كامِلِينَ
وطِرنا معاً من يديهِ مع الطيرِ
فوقَ البحيرةِ، صِرْنا البحيرةَ
صِرْنا الجِبالَ وصِرْنا الظِّلالَ
وصِرْنا مقاهي الرَّصيفْ.

ها أنا أطردُ الشَّوْقَ من لُغَتي،
وهل الشَّوْقُ إلا اعترافٌ بِكَسرِ المكانِ مَكانَيْنِ
والجسمِ جسمَيْنِ والواحدِ اثنينِ؟
إنّ الضِّفافَ هي النهرُ
مِن دونِها لا نُسَمّيهِ نَهراً
وإنّ الجِبالَ تصير جِبالاً بوِدْيانِها
والزهورُ، أتنمو الزهورُ على غير سيقانِها؟
أو تعيش المَقابِضُ دون السّيوفْ؟
ومَن يفصلُ الطيرَ عن مُمْكِناتِ الجناحَيْنِ
والموجَ عن جَسَدِ البحرِ؟

مَن يفصلُ الآنَ بين السفينةِ والماءِ
مَن قال إن الربيعَ انقطاعٌ عن الصيفِ
مَن يفصلُ الغيمَ عن درَجاتِ البياضِ
ولا هالةٌ في السماءِ
إذا البدرُ ما كان في قَلْبِها
هل أنا قلتُ هذا أم ارتجَلوهُ فوافقْتُهُم؟
لستُ أدري
ولكنني لستُ أشتاقُهُمْ
إنّهمْ خَلْفَ أزْرارِ هذا القميصِ الخَفيفْ.

***

فَلْيَحْضُرِ التاريخ

فليَحْضُرِ التاريخُ فوراً

وليُلْغِ موعدَهُ مع الحرب التي ستَجيءُ أو

مع أيِّ سِلْمٍ مُفترَضْ

ومع القضايا العالقاتِ بِحِبْرِهِ وحِرابِهِ

وإذا تذرَّعَ بانشغالٍ أو مَرَضْ

وإذا اعترَضْ

سأجُرُّه بيدي إلى غُرَفِ المعيشةِ بيننا

وأديرُ سَهْرَتَهُ أنا

ليرى لأوّلِ مرةٍ ولَداً لَهُ وَجْهٌ، له صوتٌ

له جَسَدٌ حقيقيٌّ، له إسمٌ ثُلاثيٌّ

يمارس يومَه العاديَّ بين يدَيْهِ،
سوف أهيِّئُ الأقلامَ والأوراقَ:
أُكْتُبْ ما تَرَى.

ستَرى انتظاري
لا لمعجزةٍ،
(فإن المعجزاتِ فضيحةٌ للعقل)
لا لِتَفاهةِ الجِنِّيِّ والمصباحِ،
(هذا الكاملُ المنفوخُ أعجزُ مِن هشاشَتِنا)
ولا للنصر في غزوٍ وراءَ البحرِ،
(إنّي لا بوارجَ لي)،
ولكنّي انتظرتُ هنا، طويلاً،
بين جُدْراني البسيطةِ
فاكتُبِ الآن انتظاري.
قل هنا رجلٌ يقيم بالانتظار
ولست أدري ما بهِ.

ستری هنا أُمّاً تُمَشِّطُ شَعرَ طفلتِها
لِتُرسلَها إلى جَرَسِ الصباحِ المَدْرَسِيِّ
ترِنُّ حُسناً في حديقةِ عُمرِها، وتَرِنُّ،
لا أحداثَ، لا جنِرالَ، لا آثارَ مَجْزَرةٍ،
فقط أُمٌّ مع ابنتها
فَدَوِّنْ مِشْطَها وجديلةَ البنتِ الصغيرةِ
في دفاترِكَ التي
انشغَلَتْ بأحذيةِ المَمالِكِ عن وجوه الناسِ.
صَوِّرْ ياسمينتَها الوحيدةَ فوق دفترِها
ورائحةَ الصباحِ
على طريق السَّرْوِ والنَّحْوِ المُبسَّطِ
ثم تابع وَقْعَ خطوتِها على حَذَرِ الرصيفِ
وذُعرَ جَدَّتِها من الأخبارِ
إذ أخفته في منديلها القطنيِّ
تَعْقِدُهُ وتَفْرِدُهُ بكَفَّيْها بلا نُطْقٍ
ودوّنْ أنّ بنتاً مِن بلادي وهي خائفةٌ تماماً

سوف تنسى أن تَخافْ

لا تندهِشْ،
واكتب كذلك خوفَنا إن رَنَّ هاتفُنا
ولا تتكهن الأسبابَ، أنت مدبّر الأسبابِ، فاكتبْ
أننا نخشى رنينَ الهاتفِ الليليِّ،
هل فكَّرتَ يوماً أنّ هذا لم يُدوَّنْ في كتابكَ؟
أم تراه من اختصاص الشِّعر والشُّعَراءِ؟
لا يا سيِّدي، فاكتُبْهُ،
وليكُنِ اختصاصَكَ منذ هذا اليومِ
فالدنيا هواجِسُنا البسيطةُ لا طُبولكَ
أو كبائِركَ التي أدمنْتَ صُحْبَتَها
وبنتُ مُنَمْنَماتِ النفس والمكنون في العلنيِّ
والمخفيِّ في المرئيِّ
صافِحْ عَمَّنا بالحَطَّةِ البيضاءِ
عادَ مِن المَزارِعِ كي يراكَ

وكان يُصْلِحُ فَجْوَةً بين السياجِ
وكان يُجْري الماءَ في القَنَواتِ
بين نشاطِهِ وشُرودِ نظرتِهِ
ويَنْحَتُ بالخُزامى مستطيلاً
حول حوضِ قرنفلِ
ويقلّمُ اللوزَ الذي في ظلِّهِ دَفَنَ ابنَهُ
بقميصِهِ المثقوبِ في الحربِ الأخيرةِ،
كم بَكاهُ وكم بَكَيْنا
ثم زَوَّجَ بِنْتَهُ الكُبرى
وظل طوال عام يستعد لعرسها
وبدا كأن العرس فاجأهُ
أطلت دمعةٌ من جفنه، لمحاً، فأبعدها
فغنَّيْنا على حَذَرِ
فغَنّى.
ربما كرَماً يجارينا كما كنا ظَنَنّا
ثم غنَّى بانسجام واضحِ

حتى بكينا راقصينَ لبنتِهِ ولإبنهِ ولَهُ
وما أخفاه عنا، وانسَجَمْنا
والبنات نثرن ورداً
من سلال القش فوق الليل
صار الليل عيداً خالصاً من غير سوءٍ
لم تؤَرِّخْ مثلَ هذا ذات يومٍ
تستطيعُ إذا أردتَ
أما سئمتَ أوامرَ الضبّاطِ؟
أَصْغِ لقصةٍ من جدةٍ لحفيدِها
والنومُ يخطو حافياً حَذِراً
يمسَّهُما بِطَرْف رِدائهِ
ليساعدَ الإثنيْنِ
أن يصِلا بِلادَ الصُّبحِ مُرتاحَيْنِ
دَوِّنْ ما جرى للقلبِ،
دوِّن ما جرى في القلبِ
كُفَّ عن التّمَشّي في حِدادِ الناسِ

تُحصِي الحزنَ إحصاءً كما التُّجّارِ
واكتبْ عن بناتٍ
لم يُثِرْنَ فُضولَكَ الدمويَّ يوماً
بل نَثَرْنَ الحُبَّ حَبّاً في حقول خيالِهِنَّ
وكيف تركضُ لهفةُ امرأةٍ لفتح البابِ
ثم تعودُ خائبةً،
تأخَّرَ،
ثم تصبِرُ ساعةً أخرى،
وتصبر ليلةً أُخرى:
أَيُعقَلُ أن زلزالاً من الصّبواتِ والشهوات فيها
لا مكانَ لهُ لديكْ؟
إجلس وأجِّلْ وَصْفَ قائدِك المُفَضَّلِ،
مائلَ الكتفينِ
فوقَ خرائطِ الرملِ التي في قَبْوِه السريِّ،
يرسم خَطَّ تحريك الجنودِ الذاهبينَ
بلا سؤالٍ

ثم دَوِّنْ حيرة الولَدينِ بعد النظرة الأولى
ودَوِّنْ رجفةَ الشفتين عند اللمسةِ الأولى،
ودوِّن خشيةَ الجسدينِ أنْ
يتسلَّلَ التاريخُ، يا تاريخُ، بينهما
فتجفلُ وردتانِ على المخدَّة منكَ، واعرِفْ
إسمَ بِكرِهِما الذي اختاراه بعد مناقشاتٍ
مع جميع الأهل،
سَمْعُكَ ليس يألفُها
ومثلكَ ليس يعرفُها
فلسنا كالرياضيات، لا تَجْمَعْ ولا تَطْرَحْ
سترى قريباً جاء مُضطَّرِباً يُعزّينا،
فلم يسمعْ سوى بالأمسِ عن موتِ ابن عمَّتِنا
أمينِ المعهدِ الوطنيِّ للمَسرَحْ
ولا تَعْجَبْ، لنا مَسرَحْ،
ولا بَلَدٌ لنا!
وافرَحْ.

كما نفرَحْ،
إذا نشروا قصيدة جارنا في
الملحق الأدبيِّ بعد غدٍ،
ودَوِّنْ لمعةَ العينين حين تَرى حفيداً بيننا
يلهو بنا ونَظُنُّنا نلهو بِهِ
وغداً سيكبرُ، هل سيكبرُ؟
والحكايةُ هل تكون كما سيحكيها كِتابُكَ؟
أم سنحكيها كما شئنا
وتتركنا نكون رُواةَ أنفُسِنا
أتعرف كيفَ ترسم بنتُنا دبّابةً وأمامَها ولدٌ
يَسُدُّ طريقَها بسذاجةِ الكفّيْن؟
لا تَسرَحْ بعيداً في خيالِكَ،
إنها قتلَتْهُ طبعاً
هل سمِعتَ طوالَ هذا العُمْرِ عن دبّابةٍ تَمْزَحْ؟

أعِدِ الرواية من جُيوب لُصوصِها

فروايةُ المظلوم تُسْرَقُ كالرغيف وكالمخازن
لا تُعَرِّفْنا كأضدادٍ لخصمٍ أنت قد صادقْتَهُ
وكأننا مِن قَبْلِهِ غيم تبدد أو ظِلالٌ أو ظنونْ
وكأننا من قبله شبحٌ بلا جسدٍ
ومثلك لا يرى جَسَدِيّة الأجساد إن حزِنَتْ وإن ضحِكَتْ
وإن ضجِرَتْ وإن فجرتْ وإن أرِقَتْ وإن سهرَتْ وإن
رقَّتْ وإن عبسَتْ وإن أمِلَتْ وإن يئِسَتْ وإن عقِلَتْ
وإن جُنّتْ وإن أجراسُها رنَّتْ بقصةِ حُبٍ انكسرَتْ وإن
ضاقت بها الدنيا وإن فُرِجَتْ وإن خرَجَتْ لقاتلِها وما
فزِعَتْ
وأنتَ تُنيمُ كلَّ صفاتها في نصفِ سطرٍ
ثم ترحل في مدرّعة لتتقن جدول الأرقامِ،
لسنا نشرةَ الأخبارِ
بل لسنا مُجَرَّدَ «خصمهم»
بل نحن «نحنُ».
لنا صفاتٌ قبل أن يصِلوا، وبَعد رحيلهمْ.
ونُصيبُ أحياناً ونخطئُ

أو يقال لنا انتهَيتُمْ، ثم نبدأ.
هل أطَلْتُ عليكَ؟
ترغبُ في الرحيلِ الآن، أعرِفُ
فلتُصاحِبْكَ السّلامةُ
لا تضع نعتاً لِتلصِقَنا علَيهِ
جيداً أو سيئاً فالنعت رأي
لا تقل كانوا «جميعاً»، أيَّ شيءٍ
نحن أدرَى مَن نكونْ.
إذهب وفكّر في الذي شاهدتَ
لا تقْدَح ولا تَمْدَحْ ولا تشفق علينا
لا تقل كانوا ضحايا
بل نُضَحِّي كي نكونْ.

***

موسيقى بلا نُحاس

أعرف أنّها لا تُجيب

لكني، بين غارَتَيْن

سألتُ الحَربَ أسئلةً بسيطة:

من أين تأتين بهذه الهِمَّة؟

أَتَعْلَمين أنكِ لم تطلُبي إجازةً

من عملك على أرضِ البَشَرْ

منذ كان البَشَرْ؟

ألّا تفكّرين ببيتٍ يخصُّك

له باب ينجّرُه نجّارون حقيقيون
من خشبٍ مألوفْ
بابٌ إذا انفتح، يستطيع، كأمثاله،
أن ينغلق
ونافذة حين تُطِلُّ على مَشْهدٍ
فإنها لا تُغيّره؟

ألم تُصادقي يوماً مخدّة؟
ألا تفكرين بغرفةِ استقبال
تقدمين فيها لضيوفك
شاياً غير مهدَّدْ
وموسيقى بلا نحاس؟

ثم تعالي نتحدث في أمرٍ مُحرِج:
حتى العنزةُ تنظف مكانها أيتها الحرب
وأنت لا تنظفين مكانَك

كيف تَسْحَرين ضحاياك للقيام بخدمتك
حتى وهم، بأكملهم، داخل البكاء؟
حتى أدواتُ عملكِ اليوميّ
هُم يوفرونها لك
يجرّون لك الثقيل والخفيف
ويهيئون لك الذرائع
يجددون لك الإقامة
يحملونك على ظهورهم المكسورة
ليجوزوا بك الجبال والمنحدرات والأنهار
وتجاعيدَ الليل
يزيحون من طريقك القلاع والعقل
وفي المشهد الأخير
هُم من يحفرون، على عَجَلٍ،
ما لابد من حَفرِهِ
ويرتّبون الصمتَ الأبديّ
في صناديق الخشبْ

يحيّرهم حذاؤك الموهوب،
حذاؤك القادر.
كيف تظهرين في مكانين في وقت واحد؟
في ثلاثة أماكن؟
يحيّرهم كيف تحتفظين بهذا القوام
وأنت تأكلين كلَّ ما يخطر ببالِك؟
ألهذا يُغرم بك صاحب الرُّتْبةِ على الكَتِفْ
وصاحب الأرصدةِ في البنوك؟
وما لديهما من خدَم؟

لم أرَكِ يوماً تعتنين بعجوز أو حديقة
تكرهين السقوف
ونظافة الممرات
وثبات الأدراج
ورفوفَ المخلّلاتِ في المطابخ

تحبين الأجسامَ الناقصةَ تماماً
والحدَقاتِ الثابتة تماماً
والجسرَ المحنيَّ على رُكْبَتِهِ المكسورةِ
في ماء النهر
وفِرارَ الناس من الناس
والأيدي المعقودة، ذعراً، فوق الرأس
والشجرَ الأفقيّ

ثم لماذا تكرهينهم تحديداً،
لماذا تكرهينهم إلى هذه الدرجة،
الأطفال؟
ألأنهم، مِن ورقٍ ومِن رملٍ
وعلى دفاترِ الرسم،
يبنون بيوتاً أينما ذهبوا
وأنت، يوماً، لم تضعي طابقاً
فوق طابق،

أو حجَراً فوق حجَر
أم لأن الأطفال سُقوفُ أجدادِهم؟
أم لأن الأطفال هم البيوت؟

أرباحكِ أحياناً صغيرة:
مزقةٌ من شال جدّة
صندلُ طفلةٍ نُقِشَتْ عليه زهرةٌ
تبدو كزهرة
طمأنينةُ دوريٍّ يدرس بمنقارهِ
نضوجَ حبّة تينْ
استعدادُ عاشقَيْن لِما يستعدّ له عاشقانْ
شهوةُ فتاةٍ انتهتْ قبل أن تعرفَ
ما يخبئهُ الرجالْ
ركوةُ قهوةٍ ستغلي، لو نَجَتْ، بعد دقيقتيْن
ساقُ فارسٍ برونزيٍّ
تمشي وحدها خارج المتحف

راكضٌ يُصابُ بالإسمنت
جدرانٌ تصاب بالركض
شُرفةٌ في الأعالي تصاب، فجأةً، بالجاذبيّة
ونظّارةُ ولَدٍ بَعُدَتْ عن أنفهِ مئات الأمتار
فعاشتْ،
وماتْ

وأرباحُكِ أحياناً كبيرة:
مدنٌ بكامل غُموضها وسَهَرِها
غاباتُ النُّمور،
سُهوبُ الفِيَلَة،
لهفةُ المعابد،
احتمالاتُ الجَدِّ في الجنينْ،
أسوار الذَّوْد، أرَقُ الفلاسفة،
عضلاتُ الأبراج، وذهولُ الناجينْ
كيف جعلتِ الحصان الخشبيّ، الفصاحةَ، الرغيفَ،

الكرامةَ، النفط، الناقة، الفيزياء، القداسة، الوشوشة، الحدود، الخرز الملوّن، قُبلة هيلين، وعود الآلهة - والسلامَ ذاتَه - عبيداً لخطوتكِ الآمِرَة؟

وأخيراً أيتها الحرب

لماذا لا ينتهي عملك عندما ينتصر المنتصر

لماذا لا ينتهي عملُكِ عندما يُهْزَمُ المهزوم؟

جلستُ منصتاً

لعلها، هذه المرة، تجيب

لكني لم أسمع

إلا دَوِيَّ الغارةِ التالية

***

القريةُ سَكَتَتْ في العامِ الأوَّل

حين قرّرَت الشمسُ أنّ بقاءَها يتطلبُ
أن تأكلَ طِفلاً كلَّ صباح
لم تعرف القريةُ ماذا تصنع بهذه اللعنة

الشيخ ذو الوجه الشبيه بالجلد المدبوغ
والارتياح الدائم
قال أين اللعنة،
فلتأكل طِفلاً كلَّ صباح

القريةُ سكتَتْ في العام الأوّل

سكتت في العام الثاني
والثالث والعاشر

مات الشيخُ بضربةِ شَمْس

في اليوم التالي
في الحيِّ الأكثر فقراً في القرية
طفلٌ، لما جاء عليه الدَّوْرُ، بكى
ضربتْهُ أُمُّه
ضربَهُ أبوه
ضرَبَه الرَّجُلُ البدينْ،
حتى الرَّجُلُ الهزيلْ،
ضرَبَهُ أيضاً
والطفل يستغيث:
– لا أريد أن أموت
– سنموت جميعاً إن لم تأكُلْكَ الشمسْ

أكلَتْهُ الشمسْ.
النساءُ الفائضاتُ الوزن
بجلابيبهن البرّاقة
وأساورهن القليلة الثمن
رقصن في الساحات فرحاً
وأطلقن الزغاريد

في اليوم التالي
صرَختْ طِفْلةٌ في حيٍّ مُجاوِر
- لا أريدُ أن أموتْ
اليدُ التي ارتفعَتْ لتضربها
بوغِتَتْ بيدٍ أخرى تمْنعُها
تكاثَرَ المدافِعونَ عن البنتْ.
رأوا ارتعاشَ رموش المعتدين
وارتخاءَ أصابعهم حول عنق البنتْ
انتزعوها من جلسة العِقابْ.

نظرَتْ أعينُهم إلى أعينِهِمْ بصمتٍ كامل
صمتٍ كأنه
أصابعُ تُمَرِّرُ رسالةً تحت بابٍ مُغْلَقْ
ثم تدافعوا
إلى كَهْفٍ كانوا خبّأوا فيه سِرَّهُمْ
ومعاً
أخذوا يَرْشُقونَ الشّمسَ بالرِّماحْ.

***

مَدَّتْ يدها

مغْبَرَّةً، حافيةً، جالسةً على التراب،
بين صفوف الخيام التي بدا عليها الاهتراء
أمامها صَحْنٌ وزَّعَتْهُ بَعْدَ طول انتظار
إحدى لجانِ الإغاثة،
على أنفها لحسةٌ من الحِساءْ
وفي يدها بعض رغيف.
اقترب منها مصور أجنبيّ
ليلتقط صورة تُلَخِّص بؤسَ المخيَّم
وتُعْجِبُ رئيسَ التّحرير ما وراء البحر
الطفلةُ ذات السنوات الثلاث أو الأربع

التي مات أهلُها في ذلك البحر
مَدَّتْ ذراعها اليمنى على آخرِها
نحو الصحفيّ الطويل القامة
كأنها تشير إلى نجمة
لتُطعِمَهُ قطعةَ خبزْ
ظانَّةً أنه، مثلها، لم يأكُلْ منذ ثلاثةِ أيّامْ.

***

سنة ويوم واحد

سنة ويومٌ واحدٌ أو ربّما يومان عُمْرُ البنت
والشَّفَتانِ لم تتجاوزا لغة الرِّضاعةِ
والحروف عسيرةٌ، ووشيكةٌ،
نلهو فنسألها عن الأسماء، ملهوفينَ،
تَنْكَسِرُ المعاني في أصابعها وفي غمّازتيْنِ
تُحاولان الردَّ باللثْغِ الصحيحِ
فتضحكُ العمّات والخالاتُ
مِن قاموسها العبثيّ
نَطرَبُ كلّما جادَتْ بتأتأةٍ بلا معنى
ونسهرُ كي نُفَسِّرَها،
– ستحكي، أوشكَتْ أن تنطقَ اسمي

قال والِدُها، ويَكْذِبُ.
فالقذيفةُ سوف تَضْرِبُ أوَّلاً
والبنت ماتت
دون أن تتعلَّمَ اللُّغَةَ التي كَتَبَتْ لها
هذا الرِّثاءْ.

***

تَمُرُّ الحياةُ بنا

تمرُّ الحياةُ بنا من زُجاج القِطارْ
كَوَمْض القِطار المُعاكِسِ في النافذة.
وتُفزِعُنا فِكْرَةُ الإرتطامْ.

وفي هذه الومضةِ العابرة
نتذمّر مِن طول أعمارنا، ضَجِرينَ
ونملكُ ان نتخاصمَ دهراً، ونقسو
لكي نخسرَ الحُبَّ،
أو صاحباً،
أو بِلاداً بأكْمَلِها

حين يلهو بنا من يظنُّ الحياةَ أبَدْ

لا أَحَدْ
يتحمَّل نافذةً في قِطارْ،
لا الحبيبُ المُوَدِّعُ فَجراً،
ولا عاشقٌ للغزال
ولا مولَعٌ بالشَّجَرْ.

يختفي من نُحِبُّ بلمْح البَصَرْ.
يختفي كلُّ شيءٍ
قُبيْلَ التكوُّنِ في حاضرِ العَيْنِ،
يُصبح ذِكرَى لما لم نَعِشْهُ
وتَفضحنا النافذة.

كأنّ بنا فزَعاً مِن مفاتننا،
او نقائصِنا

أنْ يراها النهارْ

كأنّ غزالاً
على أفُقِ العشْبِ يلهو ويلعبُ
مُنْتَشِياً بغزاليَّةِ الطفل فيهِ
ودُنْياهُ نافذةٌ لا جدارَ لها أو إطارْ
ومِهنتنا، كلُّ مهنتنا،
أن نُسَدِّدَ رُمحاً إلى صدرِهِ
ثم
نَعْشَقُ فِكْرَتَهُ
مِن زُجاج القطارْ

***

سَلَّةُ الفَواكِهْ

تعال وانظر!

تعال وانظر إلى الأشجار:

تحبسها الريح في قبوِ الشتاء

تمزق ثيابها وتترك عُرْيَها، مستوحشاً،

يرجف

لا الطير يجرؤ على زيارتها ولا النحل

في جبهة حربِها الصامتة

يهمس غصنٌ ذكيٌّ لآخر:

تَمَهّلْ.

«ليس هذا وقتَ الثمر أيها الأرعن»

يُطيعُ الغصن صاحبَهُ طاعةً كاملة،
كاملةً كالفراغْ.

الأشجار تبدو قُرى مقصوفةً هجَرَها سُكّانُها
أخذوا معهم ألوانَها وظِلالَها
وتركوا حولها صعوباتٍ مدوِّية:

لا أحد يشاركها الأنين
تحت لكمات الرَّعد
وجلسات التعذيب بكهرباء البرق.
وإهمال المارّة

تعال وانظر
لأن كثيرينَ

لا ينظُرونَ إلى حقلٍ يكْسوهُ اللاشيء
لأن العظيمَ لا يفسِّر غُموضَه
لأنها مثلَنا تحارب تحالُفاً من ثلوج الشمال
وضبابِ الآلهة،
وقِلَّةِ النَّصيرْ،
ولأن الاحتمالاتِ مفتوحة
عَلِّمْ قلبَك كيف يثق بصمتها

الأشجار التي بَدَتْ لك، مثلنا، ميتة
كانت تحاول طوال الوقت،
كانت تحاربُ طوال الوقت.

وفي يوم معلوم،
ولأنّهُ لا شيءَ يخجَلُ مِن أَوانِهْ،
يهمسُ غُصْنٌ ذَكِيّ:
«الآن.

الآن أيتها الأغصانُ التي صَبرَتْ
الآنَ أيتها الأغصانُ التي تحمَّلَتْ
الآنَ أيها الرفاق»

***

مملكةُ الأوراق
تفتح أبوابَها للطير والنحل
ونحن البَشَرْ
نُهَيِّئُ السِّلالْ.

وفي يومٍ معلومْ
يفتح أحَدُهُم الستار:
سلَّةُ الفواكِهِ
التي تتوسَّطُ المَشْهَدَ المنزِليّ
تتوهّجُ
كالنّصر.

***

كم سَهَراً وكم مَهارةً
وكم تخصصاً وكم تردداً وتضحية
تحتاجُ إن أردتَ صُنعَ آلةٍ رخيصةٍ أو غاليةْ؟
وكل ما تحتاجه إذا أردت صُنْعَ طاغيةْ
أن تنحني.

***

لا، ليس خرتيتاً وليس مُعجِزَة
بل ربما يشبهُني ويشبهُكْ
وهذه ليست كما حسبتَها، أظلافَهُ
بل إنها أظافرٌ عاديةٌ،

كأنها أظافري،

كأنها أظافرُك،

نعم.

وليست هذه حوافِرَه

بل إنها حذاؤه، مَقاسُهُ ثمانيةٌ،

أو تِسعةٌ كما أظُنْ

نعم.

ووَزنُ جِسْمِهِ، ليس كما تراهُ، نصفَ طنْ،

بل مثلنا، سبعون، قُلْ تسعينَ، كيلوغرامْ

وليس هذا قَرنَهُ، بل أنْفُهُ المرفوعُ واثقاً،

حتى وإن أَصابَهُ الزكامْ

نعم. وإنه يُصيبُهُ الزكامْ

نعم. وقد يُصيبهُ، كما يُصيبكَ، النزيفْ.

***

هو لا يأتي من أكتاف الغيماتِ إلى كرسيِّه

بل من أكتافِكَ أنتَ وأكتافي

ويُدَلّي رِجليْهِ على سَرْجِ الوقتْ،
وأؤكد أنّ له رِجليْنِ فقط لا سِتّ

يهوَى المِرآةَ وتهوى أن تهواهُ ويَهْواها
ويُحِبُّ القانونَ فلا يقتلُ نَفْساً، أو يهدِمُ بيتاً
أو يَذْبَحُ بِضْعةَ آلافٍ إلا بالقانونِ
وفي عَهْدِه
تبدو الآمال إهاناتٍ لذكاء الناسِ
فتومضُ كي تَخْبو
وتعود تضيء بلا سببٍ معروفْ

يترجم ارتعاشَهُ صلابةً مهما جرى
لأنه يريد منا أن نكون ماءْ
آراؤنا رأي الإناءْ
يريد أن يرى رُكودَنا المقيمَ دائماً
في قاعِ كُوبْ

يريدنا أن ننحني إذا انحنى الإبريقُ في يَدِهْ
ونحبسَ الكلامَ في الحلوق
لكننا حين انتوينا كلُّنا، ما ينتويه الماءْ
عَلَتْ يداهُ باستغاثةٍ أخيرةٍ
واستغْرَبَ الغَرَقْ

***

القفل

مهما كان ثقيلاً

مهما كان عصيّاً

لا يُخيفُني القفلُ الذي أراهُ بعينيّ

القفل الملموس،

المادي،

المُعْلَنْ،

الذي يُشْترى من السوق،

القفل المدلّى على البوّابة

والحقيبة

والمخزن،

هذا قفل بوسعي أن أدير فيه مفتاحاً
أن أزيل عنه الصدأ بِرَشَّةٍ من WD40
أن أفُكَّ أَلْغازَهُ بعد تعب
بوسعي أن أستبْدِلَهُ
أو أن أتركَهُ مكانَه
احتراماً لرغبتهِ المُعلَنَةِ
في الدفاعِ عن قيمةِ ما يَحرُسْ
وبوسعي أن أكْسِرَهُ لو كان على باب زنزانة
(وإن كان هذا قد يحتاج ملايين الأيدي)

لكنْ
القفل الذي لا تراهُ العيْن
ولا تلمسهُ اليَدْ
ولم يصنعه الحَدّادْ
القفلُ المتروك للتكهن والاستنتاج
القفلُ الخفِيّ الذي يغلقك تماماً

والذي تحدثني من خلفه
حديثاً غريبا لا يقبلُهُ عَقْل
قفلُكَ هذا
يُفقدني، تماماً، أيَّ رغبةٍ في النطق
فأتذرع بأنني تأخرت
وأن عَلَيَّ الذهابْ.

***

في مديح الأشباح

قد يخطفون الصغارَ من الفِراشْ

أو يكسرون عليهم الحائط

أو النافذة

أو السقف

قد يعذبونهم في القبو

لكل هذا

يخاف الأطفال حكاية الأشباح

لكنهم

بمزيج من الذعر والسرور

يطالبون أمهم كل ليلة بالحكاية المخيفة

وبعد حضنٍ تعودوا عليه،
وابتسامةٍ، وقُبْلَةٍ على الجبين
يدخلون إلى النوم، ببطءٍ واطمئنان
كقاربٍ يَرْسو

لهذا فإنّ الجنودْ
الذين داهموا ليلَ المنزل
ببنادقَ محشوَّةٍ بقَرار القَتْلْ
وحشَروا العائلةَ كلها في الرُّكْنْ
لم يفهموا ابتسامة الأطفال وهم يتهامسون
لا تخافوا. لا تخافوا
هؤلاء هم الأشباح
لا تخافوا
فالأشباحُ ليسوا أشراراً
إنهم يتركوننا دائماً بِخَيْر

***

القبطان

أرى خشباً طافياً بجواري

وقرب القريبين مني

ولكننا قد غرقنا تماماً

وهل يغرق المرء إلا تماماً؟

فقبطان رحلتنا راح يلقي بنا

واحداً بعد آخر من سور باخرةٍ

كم رقصنا بأعيادها

ليكون الوصول له وحدهُ

أو لمن كان يشبههُ

أو لمن صار يشبههُ

أو لمن سوف يشبههُ

والسفينة، ركابها الآن أعداؤها

والطريق اختلف

تأخر عن وقته كل شيءٍ

تبكر عن وقته كل شيءٍ

وهذا التلف

جديد قديم

ووجهتنا لم تعد واحدة

***

مهما قلت

مهما أتقنت الكلام

لن تسترد قلبي

لأن قلبي

يسمع الذي لا تقوله

***

دون ضجة

هادئاً، دون ضجة،
مثل حقل الشموع في كنيسة
متطلباً،
كصندوق النذور
بريئاً
كطفلة تقول للضيف أنا لا أحبك
صامتا،
كشلال لا يدرك سبب هديره
ذكيا
كبراعم آذار المسلحة بشوكها الضروري

مطَمْئِناً
كابتسامة طبيبٍ بعد قراءة النتائجْ
يُقْبِلُ وَجْهُها عَلَيّ
محاطاً بِرِضا الوالديْن، ودعوات الجدّاتْ
أقول لنفسي
ستنجو. ستنجو
وسوف أصحبها معافاةً إلى بيتنا
وندعو الأصدقاء
الذين قلقوا طوال السنوات الأربع الأخيرة
إلى احتفالٍ كبير
ولم أكن أعْلَمْ
وأنا أجُرُّ قدَمَيَّ وحيداً في الشارع
أنّ ذلك كُلَّهُ
كان طريقتَها
لكي تودِّعَني
الوداعَ الأخيرْ

***

أَعْرِفُهُمْ

أَعْرِفُهُمْ
مِهْنَتُهُم إطلاقُ النار على الفِكْرَة
لكنْ،
أين تقيمُ الفِكْرَةُ بالضبطْ؟
أتقيم الفكرة في البيت؟
كم رفعتْ بنتٌ يدها في ليل الأنقاض
تنادي: يوجعني السقف
أتقيم الفكرة في الحقلْ؟
في الشمس الفكرةُ أم في الظِّلّْ؟
في صُبْحِ الديكِ الصائحِ أعلى التلّ؟

قالوا:
أطلقْنا النارَ على الصبح
وعُدنا للأنقاض فدمرناها ثانيةً
أم أن الفكرة تَسْهَرُ في الليلْ؟
لاحقْنا السهرةَ حتى حَبِّ الهال وركواتِ القهوة
أغلَقْنا بواباتِ الليل بأقفال الخوفْ
وتركناهم مفجوعينَ
كَوَعْلٍ تركَتْهُ سفينةُ نوحْ

أتُقيمُ الفِكرةُ في أشعارِ جُدودِهم الأولى؟
أَمْ في الإبنْ؟
أين تماماً في الإبنْ؟
في الصدر أم العينينْ؟
في الروح أم الفخذيْنْ؟
أين تقيم الفكرةُ؟ أم فِكرتُهُمْ ينقُصُها الأيْن؟
هل تحيا الفكرةُ في القتلى؟

فلنَقْتُلْ كلَّ مقابرِهمْ،
فليَمُتِ الموتى ثانيةً
أعرفهم
أخذونا للموت مراراً
أخذونا للموت جماعاتٍ وفرادى
والدهر مقيم
واللغز مُقيمْ.

لَسْتُ قبيلةَ نَفْسي

نُحَدِّقُ فيها جميعاً

ونحن زؤانٌ وقمحٌ،

جَمالٌ وقبحٌ

فتعكِسُنا صورةً واحِدة!

المرايا

التي علَّقَتْهَا القبيلة

هنا، الإبتسام يُعَدّ لنا سلفاً،

والإجاباتُ والإنسجامُ،

وأنا لا أطيق انسجامي

فصمتي يجادل صوتي
وعيني تكذِّبُ أُذْني
أعيش اليقين لبعض ثوانٍ
وأهمس للشك خذني
وأصدق حيناً وأخطئُ حيناً
وقد أتناقض حتى الفضيحةِ دون اعتذارٍ
وأسأل حتى تملَّ الإجاباتُ مِنّي
وكل يقين يبارزني أتقيه بِظَنّي
وأنْبَتُّ عنهم وأغضبُ
ثم أعود وأنبَتُّ ثانيةً بعد حينٍ
فلسْتُ قَبيلةَ نفسي
وما زات أعجبُ
كيف تكون القبيلة واثقةً هكذا
بينما كل فرد بها مرتبكْ.
وأصبحَ عُمري سؤالاً:
كَسَرْتُ المَرايا التي علَّقَتْها القبيلةُ في غرفتي؟
أم، تُرى، كَسَّرَتْني؟

في صقيع لَيلِهِمْ
والويلُ يدق كعبه المعدنيّ
مقترباً من الجميع
أنا الواقف مستعداً لتقديم العَوْن
راضياً بالتّحَمُّل
مشتهياً لو كنت أقوى وأذكى وأصفى
لأكون جديراً بأن ألبّي
ماذا أفعل وأنا أراهم
(وهم يمشون إلى ما أخشاه)
يغلقون عليّ الباب كمِرآة في الظلام
ما شغلُ المِرآة عندما لا ينظر فيها أحد؟

ماذا تصنع مِرآة وحيدةٌ في الظلام؟

***

الذكي من بينهم يتسلل إليّ خلسة
- كن معنا، ثم ...
- لكنكم غادرتم حافة الجرف
أنتم في هواء الهاوية
في منتصف الهواء
- لسنا حجراً فنسقط
كن معنا، ثمَّ ...
وأطال الشرح
كأنّهُ ما زال يملك صوتاً
وكأنّه ما زال واقفاً بأكملِهِ على الأرض
لم أقل شيئاً، أو ربما قلتُ ولم أسمَع
ففي ليلِ هذه المنحدرات
الذي سيهلكني أيضاً
كان دَوِيٌّ ارتطامِهِمْ
يطغى على كل شيءْ

نُسَخ

الذي في بالهِ ليس أنا
بل نُسْخَةٌ عنّي
هو الذي كَوَّنَها في رأسِهِ
فيها القليلُ غالباً
أو ربّما الكثيرُ من حقيقتي
وظن أنها أنا.

يبين هذا الأمر في إشارة أو طلَبِ
أو زفرةٍ أو نظرةٍ أو لهجة عند الحوار
أو توقُّعٍ أو في نصيحةٍ

أوقصة تروى بشكل ما

وغيرُهُ لديه نسخةٌ ثانيةٌ،
ثالثةٌ وعاشِرَة

ومنهم الصديقُ والحبيب
والموظف الرسميّ
والبقّالُ وابن الخالِ والمُديرُ
والشرطيّ عند الحاجز الأمنيّ
والقنّاصُ وابنُ الجارِ
والزميلُ في الزنزانة المجاورة

أوْصافُهُمْ هي التي تُحَدِّدُ التعريفَ
لا وَصْفي أنا

وعندما حاولتُ فَهْمَ اللّغزْ

أدركْتُ أنني كالعملةِ المزوَّرَة
تبدو كأصلها لكنها بعيدةٌ
ثم انتبهتُ أنني كرَّرْتُ فِعلَهم
وربما صنعتُ كلَّ واحدٍ
على هوايَ لا على هَواهْ
أَلِفْتُهُ كما أَلِفَني،
زوَّرْتُه كما زوَّرَني،
عامَلْتُهُ كأنه سِواهْ

لا يعرفونني بالضبط
ولا أنا أعرفهم بالضبط
وهكذا احتملْتُ مِثْلَهُمْ
هذي الحياة

***

الاستقامةُ مثلاً
ما معناها عندما يتعلق الأمر بالقرميد
هل ينفع القرميد إلا إذا كان مائلاً؟

***

الغفرانُ مثَلاً
يبدو عقاباً موجعاً للعاشق النبيل
خير لك أن تتشاجر معه شجاراً قصيراً
يبدأ وينتهي
دع الغفران جانباً
فالغفران شكلٌ من أشكال القَسْوَة

***

الإحسان مثلاً

أنت، راضياً وواثقاً، تدعوني إليه

وأنا، متشككاً في ثقتك ورضاك،

لا أريد أن تظل اليدُ السفلى في مكانها

واليد العليا في مكانها

لهذا أنت تُعَيَّنُ وزيراً

وأنا

أفكِّرُ في ما يَجِبْ

***

الاطمئنانُ، مثلاً

ماذا أفعل به انا المؤلف؟

بل ماذا يفعل بي إن تمكَّن مني

الاطمئنان قاتل محترف

يعانق ضحاياه لتهدئتهم

ثم يخنقهم بالحرير

وإن لَمَحَهُم عن بُعد

أطلق عليهم الرصاص
هنا ينبغي أن أتسلَّحَ بالقلَق
وأعقِدَ حلفاً مع الشك
لأعيد تعريف البطولة:
بُطولةُ الشّاعِرِ مِمْحاتُه

***

سوء تفاهم

رائقاً، واثقاً،
العَريفُ يقدِّمُني للحضورِ:
«سيشدو لنا بُلْبُلٌ من بِلاديَ هذا المساء»

وفوراً تبلبلتُ واختلط الأمر فعلاً عليّ
وكنتُ نَسيتُ جناحَيَّ في البيتِ،
بل جئت، يا للفضيحةِ، مرتديا بدلةَ الصوفِ،
قلت لنفسي:
مِن الصعب أن يكسُوَ الريشُ جسمي
نزولاً على أمر هذا العَريفِ

المُصِرِّ على انني بلبلٌ
نَظَرْتُ
ولم أرَ دَوْحاً هُنا أو سَماءً تحيط بطاولتي
بل جُموعاً مِن الناس تُشْبِهُني
قلتُ كيفَ أرفِرفُ فوق غصون الكراسي
بلا أجنحة؟
وكيف أزقزِقُ شِعري
ومنقاريَ الآنَ ليس معي،
فأنا ليَ أنفٌ يثبّتُ نظّارتي
ثم فتَّشْتُ،
لا ذيلَ لي كي يساعدَني في الدّلالاتِ
لاحظْتُ حَجْمَ حِذائي، وغِلْظَةَ صوتي،
وهَبْني نطَقْتُ
فماذا ستنفعُني شفتايَ بيومٍ كهذا
وكنت أظنّهما تَلْزَمانِ إذا العِشْقُ يوماً
تَطلَّبَ بعضَ الكلامْ

وكنت أظنّهما لبِناءِ المعاني
وصيدِ المُخَبّأ في الظاهريِّ
أو الإعتراض على طاغيةْ
وكنت أظنّهما تصلحانِ
لنُطقي بِ «لا» أو «نَعَمْ»
وأنا لم أطِرْ في الفضاء إلى قاعة الأمسية
بل أتيت لكم ماشياً
فوق أسفلت هذا الطريقْ
وعلى الرف في منزلي عُلَبٌ للدواءْ
تقوم بواجبها بين حينٍ وحينْ
ورَفُّ المَسَرَّة أيضاً عليه من الحين للحينِ
بعضُ النِّداءْ
وهذا العريفُ البريءُ،
يُقَدِّمُني واثقاً، رائقاً، للحضور:
«سيشدو لنا «بلبلٌ» من بلاديَ هذا المساء»!

***

كشُرفَةِ سَقَطَتْ بِكُلِّ زُهورِها

إلى محمود درويش

في هالةٍ تُخْفي حَياءً كامِناً،
وبِكِبْرياءِ خُطاهُ في المنفى وأرضِ عذابِهِ،
تَسري مَوَدَّةُ قَلبِهِ قمَراً يضيءُ، بغير إلحاحِ،
على أصحابِهِ.

وبهِ اندِهاشٌ يوقِظُ المألوفَ مِن إغمائِهِ
وكأنهُ يحمي طفولتَهُ بِمَكْرِ شَبابِهِ

العَقْلُ فيه مغامِرٌ،

والقلبُ هيّابٌ يفِرّ من التّمادي في الهوى،
وصفاءُ عينيه الصباحيُّ احتفالٌ بالقَصائدِ،
والقَصائدُ لا تُرَدُّ ببابِهِ،

خذنا إلى الكُحليِّ يا بحرَ البلادِ
وطُفْ بنا في العالَم المفتوحِ،
أَسْمِعْهُ ارتعاشَتَنا
وقِصَّتَنا المقيمةَ في دفاترِ شاعرٍ
مذ غَيَّبَتْهُ الأرض سَلَّمَتِ العيونُ بما رَأَتْ
وقلوبُنا لم تعترِفْ بغيابِهِ.

وكأنّهُ إذ ماتَ أخْلَفَ ما وَعَدْ.
وكأنّنا لُمْناهُ بعضَ الشيءِ يومَ رحيلِهِ.
وكأنّنا كُنّا اتّفقْنا أن يعيشَ إلى الأبَدْ.

«محمودُ إبنُ الكُلِّ» - قالتْ أمُّهُ،

وتراجعَتْ عن عُشبهِ، خَفَراً، لِتَنْدَفِعَ البَلَدْ.

يا ويحَها «حُوريةٌ»،
هل أدركَتْ أنّ البِلادَ لِتوّها
قد وَدَّعَتْ مِن كلِّ عائلةٍ وَلَدْ؟

***

محمودُ نامَ هنا
ومَرَّتْ حَفنةٌ عبر الحواجزِ
من تراب «البَروَة» الممنوعِ
لانتْ تحت دهشتهِ ونامَ،
وفوق تَلٍّ لا يُطِلُّ على الجَليلِ
رأيتُ غيْماتٍ قِصارَ العُمْرِ
تبدو، ثم تضمِرُها السَّماءُ، كأنّ أبيضَها
يُصاحِبُهُ إلى عنوان «غرفتهِ الأخيرةِ»
كي يؤثثها، فيرضى عن أناقةِ ما يَرى.
كلُّ الطقوس تعطَّلَتْ فيها:

فلا مِرْآتُهُ الأرابيسك ترمقهُ يسارَ البابِ
لا قَلَمٌ يضيفُ إلى الفَراشَةِ ما سيُدهِشُها
مِن الأوصافِ،
لا القرآنُ فوق الحامل الفضِّيِّ
عند يمينِ زائرهِ
ولا سيجارةٌ في الدُّرْجِ يخفيها حياءً
من صديقٍ
لا مُسَوَّدَةٌ يمزِّقُها ليتقنَها
ولا كُتُبٌ منَسَّقةُ الرفوفِ وراء مقعده الأليفِ
ولا صباحَ هُنا ليَكْتُبَ،
لا مساءَ ليقرأ الإغريقَ ثانيةً، ويحسِدَهُمْ
نعم. كم كان يحسدُهُمْ
لأنَّ هناك في الأوليمبِ آلِهةً
تُعِيدُ تَوازنَ الدنيا إذا مالتْ على أبطالِها.

مِترانِ أو أدنَى قليلاً

فوق تلٍّ لا يُطِلُّ على الجليلِ
وغُرْفَةٌ، هذي الأكاليلُ الركيكة فوقَها،
وركاكةُ الزعماء والخُطَباء، مِن أقفالِها.

ماذا سيأخذُ منك قبرُكَ في بلادٍ كنتَ أطلقْتَ
الخيالَ كهُدهدٍ يطوي الجهاتِ
لكي يُحيطَ بحالِها.

لاحَقْتَ سارقَها/ عَدُوَّكَ،
واضطربتَ جوارَ حاكِمِها / صديقِكَ،
واقتربْتَ من الأيادي المخطئاتِ
وكان بعضُ النأي أَوْلَى
عاتَبْتَكَ لِلَحظةٍ أو لحظَتَيْنِ،
لِغلطةٍ أو غلطتيْنِ
وسامَحَتْكَ مَدى الزّمانْ.
«هو واضحٌ حِيناً، وحِيناً غامضٌ» قالتْ،

ولكنْ راقَها سِحْرُ البيانْ.

وهَوَى الفِراقُ
كَشُرْفَةٍ سَقَطَتْ بكُلِّ زُهورِها
وكأنها زمَنٌ تكسَّرَ في المكانْ

لا بُدَّ مِن يومٍ كهذا
كي نرى في كلِّ فلسفةٍ غيابَ كَمالِها،
وهنا يزوغ يقينُنا والشكُّ، أو يتثبّتانْ.

وهنا تَساوَى العابدونَ بكلِّ ما عَبَدوا
أمام فِرار لُغزِ الكوْنِ مِن لَمْسِ البَنانْ.

شَرْقُ الزَّمانِ وغَرْبُهُ
في دَمْعَةٍ يتَشابَهانْ.

نُصِبَ الكمينُ لنا كأبهى ما يكونُ
ونحن نركضُ نحوهُ كي نَتَّقيه، سُدىً،
ونركضُ،
كلُّ إفلاتٍ إلى حينٍ. وهذا اليومُ حانْ.

وخدَعْتَني.
صارَعْتَ موتَكَ مَرَّةً، ونجوتَ منهُ
لكي أصدِّقَ، بالتمنّي والسذاجةِ،
أنه خَسِرَ الرِّهانْ.

وعجِبْتُ بَعدَكَ
كيف أحيا بعضَ أحيانٍ،
وكيف أموتُ مِن آنٍ لِآنْ.

هذا كتابُك في يدي بَعْدَ الغيابْ.
شِعرٌ تُوَقِّعُهُ بمَوْتِكَ غيرُه في حفلةِ التوقيعِ:

تقرأ خلف موسيقى من الإصغاءِ،
- «مبروكٌ كتابُكَ»،
ثم يبتسمونَ،
«وقِّعْ لي هنا»،
«وقِّعْ لِأُختي وابنِها أيضاً»
وأنتَ تُوَقِّعُ اسمَكَ
خَلْفَ طاولةٍ من السَّهَرِ الأنيقِ،
وخلسةً،
يتسلَّلُ الموتُ المُسِنُّ إليكَ كُرسيّاً فكُرسيّاً
يقودُكَ مِن يسارِكَ نحو دارِكَ كي
يشاركَ ما تبقّى من نهارِكَ
يا وحيداً باختيارِكَ واضطرارِكَ
(فالفلسطينيُّ يختار اضطراراً
كي يُصَدِّقَ أنه حُرٌّ)
ووحدَكَ كنتَ، أكثرَ من تَخَيُّلِنا:

كم استدرجتَ موتَك
كي تُحَوِّلَهُ إلى لُغةٍ،
إلى «إسمِ» فينسى «فِعلَهُ»
حاورتَهُ
ورَسَمْتَهُ
وكتبتَهُ،
فاوَضْتَهُ،
أوْقَفْتَهُ في آلة التصويرِ،
قلتَ له ابتسِمْ لتكونَ أحلى،
أنتَ أحلى داخلَ الإيقاعِ، أحلى
في سطوري من نواياكَ، ابتسِمْ
لم يبتسِمْ.
لم ينسَ ضيفُكَ دَورَهُ.
هَبَطَ الغِطاءُ على البيانو
أطفأوا أنوارَ مَسرحِنا وراحوا
رانَ صمتٌ في المدينة كلِّها

عاد الجميعُ من العزاءِ
وأغلَقوا الأيامَ خلف نهارهمْ
وقَصَدْتُ قَبْرَكَ لا يرافقني أَحَدْ
وجلستُ وَحدي في حُضورِكَ، مع زُهورِكَ،
عند آخرِ مَنْزِلٍ في الأرضِ يسْكُنُهُ الفَتى
وجَلَسْتُ وَحْدي:
تستحقُّ اللَّوْمَ فِعلاً يا صديقي
أنتَ مَن قرَّرْتَ أن تأتي إلى هذا المكانِ الآنَ
أنتَ، مِن البداية،
كنتَ تنوي أن تُغادرَ، كامِلاً
وبلا سُعالٍ حين توقِدُ سهرة الأصحابِ
بالضَّحِكِ الذكيِّ،
بلا انحناءٍ حين تُلقي الشِّعرَ في الآلاف
رُمْحاً أو نَسيماً أو نَشيداً واقفاً

لم تعترف بفضيلة العكّاز للولد الوَسيمِ،

المستقيمِ الظَّهر، عدّاءِ المسافات الأنيقةِ
أنتَ من هرَّبْتَهُ، قصداً، وراء الغيمِ
تَدْفَعَ عنه كارثةَ الهَرَمْ

- «فليذكُروني هكذا
بفتوَّة الكلماتِ والكَتِفيْنِ واليَدِ والقَدَمْ.
لن يشهدوا يوماً خريفي».
قُلتَها، وركضْتَ مِن كَفِّ الطبيبِ إلى هنا
لتُقيمَ آخرَ أمسياتِكَ
مع نجوم الليل في تَرْحالِها

هذي قصيدةُ شِعرِكَ اندفعَتْ
لتبحثَ عنكَ فوق سهولها وجبالِها

كنتَ التقيتَ بها قديماً في الصِّبا
ثم انشغلْتَ عن الصِّبا بخِصالها

وكما يليق بحارسٍ يَقِظِ اليدَيْنِ
تفَقدَّتْ عيناكَ حاجاتٍ لها لا تَنْقَضي
وقضيتَها سهَراً على أنوالِها

مُتَمَلْمِلاً مما يُراد من الكتابةِ،
عارفاً ماذا تريد لها،
تُحَصَّنُكَ الشّكوكُ الساهراتُ
على سطورِكَ
أنتَ دوماً في خصام مع رِضاكَ
وفي حروبٍ مع وسامة أَمْسِكَ الذهَبيِّ
فالماضي صديقُ الراكضينَ إلى الوراءِ
وقد تُخاطبُ فيك «محموداً» سِواكَ،
تَحَبُّباً ومَلامةً
ترتابُ في أضوائه ومقامِهِ
وتكادُ تسخرُ من تفاؤله ومن آلامِهِ
وحُروبهِ وسلامِهِ وغروره وغَرامِهِ

وكأنما في الشاعر الحقِّ التباسٌ عابثٌ
يَحْمِي من الأوهامِ، رغم جَمالِها.

وبَنَيْتَ موطنَنا على جَبَلِ المَجازِ
فكان أجملَ مِن خيال العسكريِّ
وكان أعلى مِن لِحَى الفُقَهاءِ
أوضَحَ من فصاحاتِ المُفاوضِ
كان أوسعَ من ميادين القتالِ
وكان أضْيَقَ من تقاتُلِنا عليهِ
وكان بيتاً سَيِّداً يُغري الحدائقَ
رغم حزن آدَميٍّ
والبناتُ على الطريق إليه أذكى
والشبابُ على مداخلهِ حقيقيونَ
والشهواتُ فيه بسيطةٌ،
لا يقتضى مَوْتَ الجميعِ
خُروجُنا لنَوالِها.

فالشعر يرسم أطلسَ الدنيا قُلوباً
لا خرائطَ
وهو عائلةُ الغريب إذا تناءى عن ممالكِهِ
وجمهوريةٌ للأسئِلَةْ
والشعر يرسم قومَنا الآتين
من أسطورةٍ هُدِمَتْ
إلى أسطورة تُبنَى
ويَلمَحُ ما تَوارى خلْفَ لحظتِها
ويلمس في الهشاشة سِرَّ قوّتِها
ويقرأ سُكَّرَ امرأة تُعِدُّ الشّاي للأولادِ فوقَ
حُطام منزلها وتُخفي دمعة عن آلةِ التصوير
ثم تقول للصحفيِّ «لن أرحلْ»
فيعلمُ أنّها انتصرَتْ قليلاً

قلتَ لي «أنا لا أخافُ فلا تَخَفْ»،
كم قُلتَ لي

والشِّعرُ جَدُّكَ وهو جَدِّي
وهو بَعدَكَ وهو بَعدي
يولد الشعراءُ مِن أوصاف دنياهمْ
ومن جَسَدٍ يعانِقُ جاذبية أرضهِ
ويَحلُّ في جسد الكلامْ

المَوْتُ حين يباغت الشعراءَ
يستولي على «أقلامِهِمْ»
لكنه لا يأخذ «الأوراقَ» من عُظمائِهِمْ
لم يكتمل يوماً حِوارٌ بين شاعر أُمَّةٍ
وزَمانِهِ،
فهما معاً في لُعْبَةٍ أبديَّةٍ
بين الخِصامِ والانسجامْ،
مِن مَطْلَعِ الإيقاعِ تبدأُ
ثم تبدأُ بعد قافية الخِتامْ.

محمودُ نامْ.
نامت ديوكُ الهال قُرْبَ صباح قهوتِهِ،
فأيقِظْها
وكُنْ أنتَ العَلامةَ يا حَمامْ.
غنّاكَ في أرض الرَّصاصِ
فَغَنِّهِ بين الغَمامْ.
زَوِّدْهُ بالأخبارِ منذ غيابِهِ،
أخْبِرْهُ:
لا تُخْبِرْهُ شيئاً،
سوف يعرفُ كلَّ شيءٍ وَحدَهُ،
يكفيه أن تُلقي السلامْ.

***

«مَنطِقُ الكائنات»، مَرَّةً أُخرى

أنا أثمنُ من أن تُبَدِّدَني
في مناقشةِ هذا المُتَعَصِّب السعيد
دَعْهُ يذهبْ في سبيلِهْ
لا تحاوِلْ إقناعَهُ بشيء
شَجَرَةُ البلاستيك
مهما رَوَيْتَها
لا تنمو عليها ورقةٌ واحِدة

***

قالت القلعة:

كما تلاحظون

لم أستطع حمايةَ أحد

حتى نفسي

مات المدافعون والمهاجمونْ

ماتت الأيدي، المنجنيقات

الأسقف الأسوار الصور

والزوجات المنتظرات

المشاعل والصمت والوقت

الشجعانُ ماتوا. والجبناء أيضاً

ومات كثير من الحجارة

أما الأبراج..

أرادت القلعةُ أن تُواصِلَ الشرح

لكنّ السيّاح

مُكْتَفينَ بالشرح البطوليِّ السعيد

أقصد الشرح المعتاد

من دليلتهم السياحية ذات النظارات الغبية

مصِرّينَ على تخليد زيارتهم للموقع

وحماية اللحظة من الاندثار

واصلوا التقاطَ الصور الأنيقة

مع الحُطامْ.

***

قال الظل:

غريبٌ أَمْرُ هذا الرَّجُلْ
أتبعُ خطواتِهِ أينما اتَّجَه
وبدلاً من أن يستفزَّهُ فُضولي
بدلاً من أن ينْهرَني
أو يتجنَّبَني
أو يطلبَ لي الشُّرطة
ينتظر دورَهُ ليتبعني،
يسير خلفي أينما ذهبت
وعندما أصل بيتي
يدخل معي من نفس الباب

لم يقابل أحداً

لم يشترِ شيئاً

لم يُبادِلْهُ التحيَّةَ أحَدْ

لم يدخل مطعماً

أومكتباً

أو مصنعاً

أو مدرسة

في جيبه صورةُ امرأة

رأيته يمزّقها ببطء

قبل أن يتلاشى في عتمةِ غرفتي،

وينامْ.

كأنه في بيته.

ولا رفيقَ لهُ في هذا العالَمْ

سِوايْ

***

قال الدّرَج:

إصعد إن قررت

إهبط إن قررت

الصاعد أنت والهابط أنت

لكني لا أحب لك أن تسمي هبوطك

صعوداً

وتلومني عندما تنزلق

ويتدحرج جسمك إلى القاع

سأقول لك شيئاً تتذكره طول العمر:

لا أحَدَ يتدحرجُ إلى فَوْق

***

قالت الغيمة :

ليس صحيحاً أنه لا شَكْلَ لي
أنا مُعَلَّقَةٌ فوقَ رؤوسِكمْ بأشكالٍ تُشْبِهُكُمْ
الطفلُ يراني دُبّاً
الحراثُ يراني مخدّة
الصحراويُّ يراني جَمَلاً
المُحقِّقُ يراني ورقةً محروقةَ الحواف
الجبانُ يراني نَعْجَة
الفلاح يراني بتلاتٍ وبراعم
البحرُ يراني جدَّته الأولى وابنته الأخيرة
الباذنجانة تراني لَمْعَة الماءِ على مَلاسَتِها

الشاعرُ يراني حتى في غيابي
الجنرالُ المُقيمُ في حِذائِهِ
لا يراني.

***

وضعني البناؤون أمام البحر
قلتم، نافذةٌ مُبْهِجَة.

وضَعَني البنّاؤون أمامَ المَحاجِر
قلتم نافذة مزعجة

لا مديحُكم لي
ولا هجاؤكم لي.

ولا أملك قدمين لأرحل

***

قال السُّلَّم:

لماذا اخترعتموني
إذا كنتم تُفَضِّلون
أكْتافَ بَعضِكُمْ؟

***

لا يشتريني، هذه الأيام،
بالبلايين
إلا القَتْلَى

***

قالت التجربة :

مَن يَعِشْ بين البِغالْ
سوف يُقْسِمْ
أنَّ للطيرِ حوافِرْ

***

العاشقة

ظلَّتْ تؤجل كلَّ موعدٍ معي
وعندما ذهبت أتفَقَّدُها
طرَدَتْني من البيتْ.
حظي أفضلُ مع العاشقة المهجورة
هي التي تبحث عني كل ليلة
كأن عِنادي يقدَح رغبتها
وكأنها لا تشتهي أحداً سواي

المُعْتَقَل

يَجدُني حلاً لمسائل لا حل لها
في المدى المنظور

المومس
أنا نهارها الوحيد.

الجائع
لي عتبةٌ تُخيفُهُ
كأنها نقطةُ تفتيش
لا يستطيع تجاوزَها
إلا بصعوبةٍ واضحة
أو غضَبٍ خَفِيّ
أو رغيفْ

الحرب
لم يحدث أن التقينا من قبل

***

قال النجّار:

كرسيٌّ المَدْرَسَة
مصنوعٌ من عِظام الموتى

كرسيٌّ المقهى
وَغْدٌ لا يعرف صاحبَه

كرسيٌّ اللاجئ
الريح

كرسيٌّ مُرافِقِ المَريض

مَريض.

كُرْسيُّ المُحَقِّقِ المُرعِب
مصنوع من السوس

الكُرسيُّ المتحرِّك
والشخصُ المشلولْ
لا نعرف مَن منهما يُحَرِّكُ الآخَر

كرسيُّ القاضي
في بعض البلدان
تَصْنَعُهُ شركاتُ الهاتِفْ

كرسيُّ العُمدة
الهدية الوحيدة التي بوسع الغفير
ذي البندقية الطويلة،

والذكاء المحدود،
أن يقدِّمَها لِسَيِّدِه.

أفخمُ كُرْسيٍّ في الدار الغارقَة
سوف يَغْرَق أيضاً

كرسيُّ الغَيور
بثلاثة أرجل

كرسيُّ طبيب الأسنان
أكثرُ عَدْلاً
من غيابِكْ

***

قال الباب:

وحيداً كأي منتظِر
تكوَّر حول نفسه،
لا ينقصه إلا الحُبْ
سيعرف ذلك وحده:
الحُبُّ ليس حلماً
وليس نسمةً
وليس خاطِرة
الحُبُّ جسمٌ صُلْب
له يدان وقدَمان
له رأسٌ يفكر وعيونٌ واسعة

له موقفٌ مِن كل شأنٍ كانَ أمس
ومِن كل شأنٍ سيكون غداً
وهو ككل الأجسام الصُّلْبَة
لا يمُرُّ مِن بابٍ مغلَقْ.

***

هذا السيِّدُ بَصَلَة

السطح المفضي للعمق

هو العمق المفضي للسطح

لا تبحث عن أي نواةٍ أو مركز

لا تبحث عن أي دمٍ أو رُوح

لا تبحثْ عن أي عناصرَ أُخرى في البَصَلَة

لا تبحثْ عن أي صفاتٍ أُخرى في هذا السيِّدْ

يكفيكَ تأمُّلُهُ

إذ يُلقي، والحراسُ يحيطون بهِ، خطبتهُ

والناسْ

بعيونٍ بلَّلَها الدمعُ،
تُصفِّقُ للعطر الطيِّبْ:
بالروح وبالدمِّ سنفدي هذي البَصَلَةْ

***

قالت حبةُ البرتقال:

لستُ رمزاً لِأحَدْ

لستُ رمزاً لِبَلَدْ

بل أنا هذا المذاق

وأنا هذا الجَسَدْ

يا مُغَنّي الوطنِ الكذاب، كُلْني

أو فَدَعْني فوقَ غُصْني

لا تُقدِّسْني رجاءً

لستُ إلا برتقالة

***

قال المَنفِي:

أتسابق مع فضة الفجر
للوصول قبل عصفور الدُّوري اللئيم
إلى حبَّةِ التّينْ
على أصعب أغصان تلك الشجرة
التي اقتلعوها
في غيابي

***

قال المصباحُ السحريّ للولد المُعدم:

كذبَتْ كلُّ حكايات الأجدادِ عَلَيْكْ

الأمنية الكبرى ليست في القمقم

لم تُعْطَ يَدَيْنِ لتفرُكَ مصباحاً سحرياً وتنام

استيقِظْ كي تَحلُمْ.

***

وثيقة

يوم غابت رضوى عاشور

إفتحوا الأبواب. لتدخل السيّدة

مَن ينشَغِلْ بِحُزْنهِ على فَقْدِ المحبوبْ، ينشَغِلْ عن المحبوبْ. الآنَ أطلُبُ مِن حُزني أن يتّجِهَ إلى أقربِ بوّابَةٍ ويغادرَ هادئاً كما أشاء، أو هادِراً كما يشاء، لكن دون أن يلفِتَ الأنظار. لا يعجبني جُوعُه ولا تلكّؤه، أكاد أكرههُ تحديداً لهذا السبب، كأنه حُزْنٌ لا يثِقُ بنفسِه، وكأنه إن اكتفى اختفى، وكأننا لم نُشارِكْهُ مقعدَه ومخدَّتَهُ ومنديلَهُ ومَلْمسَ حذائِهِ على زُجاج ساعاتنا.

لستَ أنتَ المُهمَّ اليومَ ولا أنا أيها الحُزنْ. أنا مُنْشَغِلٌ بها لا بِكَ أنتْ. بِسَعْيِها العسيرِ للنصر في مواجهاتِ زمانها. واجهَتِ المرضَ خمسةً وثلاثينَ عاماً، ومُحَدِّثوها لا يَرَوْنَ في حديقةِ لقائِها إلا أشجارَ السرور، وفاكِهَةَ السَّماحةِ والرضا. واجَهَتِ السائدَ المتّفقَ عليه، والطاغيةَ المسكوتَ عنه. وواجَهتْ، حتى الرَّمَقِ الأغْلى، رَكاكةَ الناطقين باسمِنا، وركاكةَ الضوء

المُشْتَرَى، وركاكةَ الكلام، وطقوسَ الهوانِمْ. هي التي جَعَلَتْ لقلبِها يداً مُنْصِفَةً تُصافِحُ الأضعفْ، وتَصْفَعُ جُملةَ الطاغية، وشِبْهَ جُمْلَتِهْ، يداً تسهرُ الليالي لتُصَحِّحَ الواقعَ والامتحانْ.

هي التي جعلَتْ هَشاشتَها إسماً آخرَ للصّلابة. هي التي علّمَتِ الدكتاتورَ كيف ترفض انتباهَهُ المشبوهَ لقيمتِها، وفي سلَّةِ مُهمَلاتٍ واسعةٍ قُرْبَ حِذائِها الصغير (مَقاسُهُ خمسة وثلاثون) ترمي المناصبَ السمينةَ المعروضة، والألقابَ الرفيعةَ المقترَحة ودعواتِ الحظيرةِ/ القصر، التي يهرول إليها سواها، مكتفيةً بفرح القارئ ببَرْقِ السطور مِن يدها وفرحِ التلميذ ببريق المعرفةِ من عَيْنَيْها. هي الأستاذةُ، صوتها ينادي أصواتَ تلاميذِها لا آذانَهم، لأن صَوْتَها يُسمِعُ ويَسمَعْ. ولأنها لم تَسْعَ إلى أي ضوء، غَدَتْ بذاتِها ضوءاً في عتمةِ البلاد، وضوءاً بين أغلفة الكتب، وضوءاً من أضواء اللغة، التي هي البطل الدائم والأوّل في رواياتها.

أُخرُجْ من أقربِ بوابة يائسةٍ أيها الحزن، ودَعْني أستبدلْ بك ابتسامتَها التي تُذهِبُ حُزنَ الرائي. فابتسامتُها رأيْ. وموضعُ خُطْوَتِها رأيْ. وعنادُ قلبِها رأيْ، وعُزْلتُها عن ثقافة السّوق رأيْ، ودائماً جعلَتْ رأيَها معروفاً، موقَّعاً بإمضائها، رغم زوّار الفجر، وفُجورِ طاغيةٍ يروح، وفُجورِ طاغيةٍ يجيء.

رضوى جَمالُ رأيها ورأيها جَمالُها. فالمظلوم يخسر إن لم يكن في جوهره أجملَ من الظالم. وهي لم تخسر جَمالَها حتى وهُمْ يؤذونها بقبحهم، ولم تخسر جمالها حتى وهي على مخدّتِها الأخيرة.

سيدةٌ قليلةُ الجَسَدْ، يتعبك تتبُّعُ خطاها. تهدمُ السورَ الفاصلَ بين الجامعة وعموم الناس. تظنها على مرتفعها الأكاديمي فتراها على أسفلت الميدان، ذائبةً في تدافُعِ «التحرير» العظيم، والكدماتُ التي توجعها توجعُ الطاغيةَ قَبْلَها. تظنُّها في هَمْسِ القصيدةِ وهَدْأةِ الإيقاع، فتراها في صرخة التاريخ الخارج توّاً من يد القابِلَةِ وأرحام الشوارع. تظنها في شوارع «وسط البلد» في القاهرة فتلقاها في غيوم غرناطة. وتظنها تجلس مع «أبي جعفر» تجلّد الكتبَ بخطوط الذهب، أو تدبّر الحِيَلَ المذهِلةَ مع «مريمة»، فإذا بها تأخذ بيَدِكَ إلى شاطئ «الطنطورة» في فلسطين وتقول لك ضَعْ قلبَك هُنا، دَعْهُ هُنا، وارسمْ غَدَكَ مِن هُنا، كي تعودَ إلى هُنا، إلى السّاحلِ الأوّلْ.

لم يأخذْها اليأسُ إلى وضوحِهِ المُغري، لأنها تَعْلَمُ أنّ الثورةَ لا تنتصر، إلا بعد أن تَسْتكْمِلَ كلَّ أشكال الخيبة. لم تمنحنا أملاً كاذباً، بل دعَتْ نفسَها ودَعَتْنا للتحمّل. وتحمّلَتْ. وعلى عصا المَجاز وعصا خشب البلوط، واصلت السيرَ في طريقها الطويل، تختصره بالرفقة، والرفقة جيلٌ أحَبَّها وأحبّته، جيلٌ

قادم بصباياه وشبابه (الحلوين كما تصفهم دائماً) يصعد جبل السؤال والمساءلة، والبحثِ عن الحقيقة تحت كومة الرُّعْبِ الرسميّ، جيل يصعد جَبَلَ الفُضول العظيم، الذي وحده يزيد العيونَ اتِّساعاً والعمودَ الفقريَّ استقامة. جيلٌ يرى أن الثوابت ما خُلِقَتْ إلا لكي نَرُجَّها رَجّاً ونهتكَ منها ما يستحقُّ الهَتْك، حتى نعرف الفَرْقَ العظيمَ والقاسي بين الوَراءِ والأَمامْ.

تَنْشَقُّ في أول العمر عن ثوابتِ الجدود والنَّصِّ والتعاليم. تُمَزِّقُ العباءَةَ الموحَّدةَ المقترَحةَ لكل أجسادنا، لأنها تحترمُ الجَسَدَ لا العباءة. تَنْقد بدراساتها المدهِشة كُتُبَ الإبداع، وبإبداعها المُدهِش تَنْقُدُ العالَمَ، وتَصْعَدْ.

أتركوا الأبواب مفتوحة. ليخرج الحزن. ولتدخل السيدة. وَقْعُ خطاها خَفيفٌ وأكيدٌ على هذا الدَّرَجْ. إنني أسمعهُ يقترِبْ. رضوى عاشور جزء مما سيصنعه هذا الجيل في أيامه الآتية، وهو جزء مما صنعَتْهُ في أيامهِ الماضية.

أثقل من رضوى ما تَركَتْنا لهُ، وما تركَتْهُ لنا. رضوى عاشور تَرَكَتْنا بَعْدَها لا لنبكي، بل لننتصِر. تركَتْكُمْ بَعْدَها لا لِتَبْكوا، بل لِتنتَصِروا.

صَدَرَ للشاعر

الشعر:

الأعمال الشعرية (مجلّدان)، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٣.

الأعمال الشعرية (مجلّد)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧.

منتصف الليل، دار رياض الريس للنشر، بيروت ٢٠٠٥.

زهر الرمّان، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.

النّاس في لَيْلِهِم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩.

ليلة مجنونة، الهيئة المصرية العامة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.

منطقُ الكائنات، دار المدى، عمّان، ١٩٩٦.

رنّة الإبرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣.

طال الشتات، دار الكلمة، بيروت، قبرص ١٩٨٧.

قَصائدُ الرَّصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

الأرضُ تنشرُ أسرارَها، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٨.

نشيد للفقر المسلَّح، الإعلام الموحّد، بيروت، ١٩٧٧.

فلسطينيّ في الشمس، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤.

الطوفان وإعادةُ التَّكْوين، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.

مختارات شعرية:

الحُب، غابة أم حديقة، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٦.

قصائِد مختارة، دار الفاروق، نابلس، فلسطين ١٩٩٦.

القصائد المُختارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.

عندما نلتقي، (قصائد مختارة)، دار الكرمل، عمّان، ١٩٩٢.

النثر:

رأيت رام الله، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٧.

ولدتُ هناك، ولدتُ هنا، دار رياض الريس للنشر ٢٠٠٩.

الترجمات الشعرية

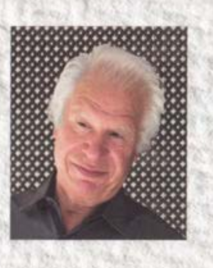
A Small Sun, Aldeburgh Trust, UK, 2003.

Medianoche, Fundacion Antonio Perez, UCLM, Cuenca, Spain, 2006.

Midnight and Other Poems, ARC Publications, UK, 2008.

شكر

كُتِبَتْ قصائدُ هذا الديوان بين سنوات ٢٠٠٥ و٢٠١٨ في رام الله وعمان والقاهرة وبيروت وكتب بعضها في إقامة تفرغ للكتابة في بيلاجيو سنتر على بحيرة كومو في إيطاليا مقدمة من مؤسسة روكفلر ومركز خوج في الهند ويود المؤلف أن يسجل شكره لهما لتوفير هذه الفرصة.



مريد البرغوثي

استيقِظْ كَي تحلُمْ

فَلْيحضُرِ التاريخُ فوراً
ولْيُلغِ موعدَهُ مع الحربِ التي ستجيءُ أو
مع أيِّ سِلْمٍ مُفْتَرَضْ
ومع القضايا العالقاتِ بحبْرِهِ وحِرابِهِ
...
سأجُرُّهُ بيدي إلى غُرَفِ المعيشةِ بيْننا
وأُديرُ سَهْرَتَهُ أنا
ليرى لأوّلِ مَرَّةٍ وَلَداً لَهُ وَجْهٌ، لَهُ صَوْتٌ
لَهُ جَسَدٌ حقيقيٌّ، لَهُ إسمٌ ثُلاثيٌّ
يُمارِسُ يومَهُ العاديَّ بين يدَيْهِ
سوف أُهيّئُ الأقلامَ والأوراقَ
أُكتُبْ ما ترى:




ISBN 978-9953-21-693-5